المصدر: روزاليوسف
التاريخ : ١٩٩٥/٥/١٥

هل يغفر المثقفون خيانة السادات لهم ؟!

إن الحديث عن الرئيس الراحل محمد انور السادات هو بالضرورة حديث عن العلاقة المعقدة بين الامة وزعمائها فى العصر الحديث ، والقصد ، بالامة ، هنا مصر وبقية الشعوب العربية . والقصد بالعصر الحديث ، المائتى سنة الاخيرة ، الممتدة بين نزول نابليون إلى شاطىء الاسكندرية عام ١٧٩٨ ، والوقت الحاضر .

سيظل الرئيس الراحل أنور السادات - شأنه شأن كل القيادات الكبيرة فى تاريخ مصر - شخصية خلافية تثير الشجون والمشاعر والآراء ولكن ما هو الجديد الذى يمكن أن يقال بعد مرور ١٤ عاما على رحيله ، وبعد مرور أربعة وعشرين عاما على « الانقلاب » أو « التصحيح » ١٥ مايو ١٩٧١ ؟

الحديث عن انور السادات ، إذن هو بالضرورة ، ايضا ، حديث عن « الاخر » الغربى ، الذى تحمل الذاكرة المصرية ـ العربية الجماعية له مشاعر مختلطة من الكراهية والحب ، ومن الإعجاب ، والامتعاض .

والحديث عن انور السادات هو بالضرورة حديث عن طبقات مصر :

فلاحها ، ومتوسطيها ، واغنيائها ؛ وعن التدرج والصعود والهبوط فى السلم الطبقى ، وعن اى من هذه الطبقات يحب من ، ومتى ، ولماذا ؟

والحديث عن انور السادات ، هو بالضرورة ايضا ، حديث عن معنى الزمن فى حياة وعقلية ومخيلة شعوب امتنا : الاوزان النسبية للماضى والحاضر والمستقبل ، وايهما يرهن لحساب الآخر ، والقواعد والآليات التى تحكم هذه « الازمان » الثلاثة فى المحيطين الإقليمى والعالمى .

وبالمعنى نفسه فإن الحديث عن السادات ، هو حديث عن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

(الماضى) ، وعن الرئيس الحالى محمد حسنى مبارك (الحاضر)

فهذا الثلاثى يمثل حلقات متصلة متداخلة . ما كان لاحدهم ان « يكون » فى حياتنا ووعينا وخيالنا إلا بالآخرين .

كان السادات للحظات قصيرة رمزاً لكل ما يحبه المصريون ويتمنونه لانفسهم ولوطنهم . وكان من هذه اللحظات مايو ١٩٧١ ،

ويوليو ١٩٧٢ ، واكتوبر ١٩٧٣ ، ولكن السادات كان ايضا ، وخاصة فى اواخر سنواته ، رمزا مختلفا لكل مايكرهه المصريون ، لا فقط فى « الآخر » الاجنبى والآخر الذى ،

ولكنه كان ايضا رمزا لما « نكرهه فى انفسنا » ، حتى ولو انكرناه ولم نعترف به علنا :

دعونا نفرغ ، اولا من الحدث ، الذى نقترب ذكراه ، وهو ١٥ مايو ١٩٧١ ، يوم انقسم خلفاء الرئيس الخالد جمال عبد الناصر ، وتفرع كل فريق بجزء من « قميص » عبد الناصر . لقد كان كل منهما يريد « السلطة » ، وكان كل منهما يعتقد فى قرارة نفسه ، او يريد ان يوحى للمصريين ، انه الاكثر اهلية وامانة على تراث عبد الناصر .

تفرع الفريق او الفريق الذى يقوده انور السادات بشرعية الخلافة ، ليس فقط لانه كان محمولا فى مجلس قيادة ثورة يوليو ، بينما كان كل المنافسين الآخرين ، فى احسن الاحوال ، مجرد اعضاء فى تنظيم الضباط الاحرار ، ولكن ايضا لانه كان نائبا للرئيس جمال عبد الناصر حينما توفاه الله ، ولانه كان رئيسا دستوريا منتخبا فى استفتاء شعبى فى اكتوبر ١٩٧٠ .

وتفرع الفريق او القسم الذى ناهض انور السادات ، بانهم كانوا الاكثر قربا من الرئيس جمال

عبد الناصر في سنواته الاخيرة ،

وانهم الاكثر « اشتراكية » والاكثر « وطنية » ، والاكثر تصميما على خوض الحرب ضد إسرائيل ، لتحرير سيناء ، وتصفية آثار العدوان :

ولعله من المواجهة الحاسمة بين الفريقين ليلتى ١٣ و ١٤ مايو ١٩٧١ ، ان فريق « الشرعية » هو الاقوى معنويا ، فمهما يثار حول امانة او نزاهة الاستفتاءات الشعبية في مصر من شكوك ، ومهما يشاع حولها من نكات (٩٩,٩٩٪) ، إلا انه في غياب اى مقياس او معيار آخر للشعبية من يناهض او يتحدى فإن تلك الشرعية الدستورية تظل هي الاقوى :

لقد كان الفريق المناهض للسادات يسيطر على تسعين في المائة من مقاليد « القوة الفعلية » في الدولة : الجيش (الفريق محمد فوزى) ، الداخلية (السيد / شعراوى جمعة) ، الإعلام (الاستاذ / محمد فايق) ، والبرلمان و (د . لبيب شقير) ، والتنظيم السياسي الاوحد وهو الاتحاد الاشتراكي (السيد / على صبرى) . ولكن هذه التسعين في المائة من « القوة الفعلية » (Pow- er) لم توازن غياب « السلطة الشرعية » (L egitimate Authority) .

وفي التحليل الاخير ، كان فريق السادات فريقا « سياسيا » ، في شخصه هو قبل اى شخص آخر ، رغم صغر عدده ، بينما كان الفريق رغم ضخامة عدده ، فريقا « بيروقراطيا » ، والسياسي ، يبادر ويخاطر ويغامر . والبيروقراطي لا يبادر ولا يخاطر ولا يغامر ، بل يحتاج دائما إلى من يقوده ويعطيه الاوامر ، وربما كان هذا الفريق البيروقراطي ماهرا وفعالا في حياة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، لانه كان القائد الذى يلهم ويبادر ويعطى الاوامر ، ولكن اعضاء ذلك الفريق لم يتعودوا في حياة عبد الناصر ، ولا في الشهور السبعة التى تلت وفاته ان يبادروا او يخاطروا او يغامروا ، ولو مرة واحدة . وكاى بيروقراطي ، يمكن ان يجلس على راس مؤسسة ضخمة كالجيش او الامن ، ويمكن ان يعطل الامور ، او يتلكأ في تنفيذ الاوامر ، او يتغيب في اجازة « مرضية » ، او « عارضة » ، تعبيرا عن الامتعاض او عدم الرضا . ولكن تلك هي الحدود القصوى لخياله السياسي .

ويبدو ان السادات ، وهو حيوان سياسي مدرب ومحنك ، كان يعرف ذلك عن الفريق المناهض له . لذلك ، فقد باغت وخاطر وغامر وقامر ، معتقدا أن خصومه ، رغم قوتهم الفعلية ، لن يبادروا او يغامروا او يتآمروا . واتضح ان حسابات السادات كانت هي الأدق . فقد انهار الفريق المناهض كبيت من ورق ، او كنمر من ورق .

إن اى ادعاءات أخرى ، ايديولوجية او تامرية خارجية ، في تفسير ماحدث يوم ١٥ مايو ١٩٧١ على فرض وجودها فعلا تبدو لى

عوامل ثانوية تماما . فانا لا اعتقد ان ايا من الفريقين كان اكثر من الفريق الآخر « وطنية » او « اشتراكية » ، او « قومية » ، او « ناصرية » ، لقد كان ماحدث قبيل ويوم وبعد ١٥ مايو ١٩٧١ صراعا كلاسيكيا على السلطة ، لا اكثر ولا اقل .

إن الزعماء الذين يجلهم الشعب المصرى والشعوب العربية فى العصر الحديث يشملون السيد عمر مكرم (مصر) ، والأمير عبد القادر (الجزائر) ، واحمد عرابى (مصر) ، وعبد الكريم الخطابى (المغرب) ، وعمر المختار (ليبيا) ، وعز الدين القسام ، وفوزى القاوقجى (فلسطين) ، وجمال عبد الناصر (مصر) .

وهؤلاء الزعماء جميعا ، وامثالهم ، قد واجهوا قوى الهيمنة الخارجية الاستعمارية ، وانهزموا على ايديها ، ونفى بعضهم او سجن او قتل ، او اعدم ، ورغم هزيمتهم إلا ان شعوب امتنا قد سطرت سيرتهم بالفار والفخار ، وتعلمنا منذ طفولتنا ان نعتز بهم ونجلهم لدرجة التقديس .

والسؤال هو : لماذا نحب هؤلاء رغم هزيمتهم ؟

والإجابة هى : لانهم قاوموا وحاربوا وصمدوا ، ولان هذه المقاومة والحرب والصمود كانت فى مواجهة « الغرب » ، او من يمثله (إسرائيل) ، وفى هذه الحالة فليس مهما نتيجة المواجهة ، المهم هو ان المواجهة قد وقعت واستمرت ، دون مهادنة ، حتى رحل « الزعيم » بالقتل او السجن او النفى ، او الإعدام ، لقد كنا نحب لزعمائنا اولئك ان ينتصروا بالطبع ، وكنا سنجلهم اكثر ونقدسهم اكثر . ولكن الاهم لنا انهم ذهبوا شهداء من اجل الوطن والامة ، ولا يهمنا كثيراً كيف اخطاوا الحساب ، او اخطاوا فى إدارة الصراع ، ولا يهمنا حجم الثمن الذى دفعناه ، او الذى سندفعه لجيل او اجيال قادمة .

وجزء كبير من مشكلة معظمنا مع الرئيس الراحل انور السادات يتمثل فى انه هادن « الآخر » الغربى ، وتصالح مع ربيبته إسرائيل ، ليس مهما عند بعضنا انتصاره فى حرب اكتوبر ، حتى لو كان اهم انتصار ، وربما الانتصار الوحيد لنا فى اهم صراعاتنا فى هذا القرن مع إسرائيل ، وليس مهما عند بعضنا تحرير الأرض ، كان الاهم عند بعضنا ان يستمر الصراع بلا مهادنة مع إسرائيل ، ودون مصالحة مع الغرب . فالمهادنة فى قاموس جيل كامل هى « مساومة » والمصالحة « خيانة » .

إن هوسنا بكراهية الغرب لا يساويه إلا هوسنا بحبه والافتتان به ، وقد كره السادات الغرب كراهية شديدة فى شبابه ، وشارك فى اغتيال جنود بريطانيا وضباطها اثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكن السادات هو نفسه الذى اراد فى كهولته ان يجعل مصر قطعة من الغرب ، فكما كان يحلو للخديوى إسماعيل ان يردد حلمه بجعل

، مصر قطعة من أوروبا ، وفى سبيل ذلك اقترض ليبنى داراً للأوبرا ، وكلف الموسيقار الإيطالى فيردى بتاليف اوبرا ، مصرية ، تناسب وتبهر ضيوف الخديوى من ملوك وملكات اوروبا المدعوين لافتتاح قناة السويس ، وبنى لهم حيين سكنيين جديدين ، هما الزمالك وجاردن سيتى ، وشيد فيهما القصور لإقامة هؤلاء الضيوف ، وبنى لنفسه هو قصراً ايضاً على الطراز الاوروبى ، هو قصر عابدين ، ونقل إليه مقر السلطة من القلعة ، كما فعل إسماعيل المفتون بالغرب كل ذلك ، فعله ايضاً انور السادات ، وإن اختلفت التفاصيل ، لم يكن افتتان السادات بالغرب الاوروبى ، بل ، بالغرب الامريكى ، وخاصة تكساس وكاليفورنيا ، وفى سبيل ذلك اقترض ايضاً ليبنى الطرق العلوية السريعة ، ونظاماً للمترو ، وليدخل التليفزيون الملون ، ووقع عقداً لتشييد ، ديزنى لاند ، مصرية على غرار ، ديزنى لاند ، الامريكية ، مع زيادة ملاعب للجولف وللرياضات المائية ، على هضبة الاهرام ، كثير من المصريين عبروا عن الهوس نفسه مع السادات فى شبابه وفى كهولته ، فهم الذين كانوا يكرهون ، الامريكان ، حتى النخاع إلى نهاية اكتوبر ١٩٧٣ : وهم انفسهم الذين استقبلوا الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون استقبال الانبياء والصديقين والمحبوبين والابطال فى ربيع ١٩٧٤ .

هذا الهوس بالآخر الغربى يمكن ان يبدا ، حباً ، ثم يتحول إلى كراهية ، ويمكن ان يبدا ، كراهية ، ثم يتحول إلى حب ، ولكنه فى كلا الحالين يتسم بكل مواصفات الهوس : الإسراف ، اللاعقلانية ، والهيستيرية ، وقد عرفت انا شخصياً اولئك الذين ، يعادون ، المؤسسات الإمبريالية نهاراً جهاراً باعلى اصواتهم ، مثل الجامعة الامريكية بالقاهرة ، او البنك الدولى فى واشنطون ، ولكنهم يستميتون سراً فى إلحاق ابنائهم وبناتهم بتلك الجامعة كطلاب ، ثم للعمل بذلك البنك بعد التخرج .

الغرب كان فيما يتصل بالسادات ، وكذلك فيما يتصل بكثير من المصريين ، هو قصة حب مهووس من طرف واحد ، حينما تتكشف حقيقته ، يتحول إلى كراهية مهووسة من طرف واحد ايضاً الغرب لا يحب ولا يكره ، ولكنه ، يحسب ، بلا افتتان .. يحسب مصالحه ببرود وعقلانية .

وقد رايت السادات وهو فى بداية لحظة قصة حب مهووس ولكنه محبوس فى عام ١٩٦٦ ، عند اول زيارة له إلى امريكا ، وكنت اصحبه كرئيس للطلبة العرب ، الذين اراد ان يلتقى بهم حينذاك ، ورايته وهو فى حالة ياس لاكتشافه ان حبه كان وحيد الجانب بعد اخر رحلة له إلى امريكا عام ١٩٨١ ، حيث قابلته لعدة سنوات بترتيب من السيدة الفاضلة قرينته ، وقد سجلت اللحظتين بالتفاصيل فى كتاب صدر بعد رحيل الرجل بعشر سنوات (إعادة الاعتبار إلى الرئيس

السادات ، دار الشروق ، ١٩٩٣)

جاء انور السادات من اصول اجتماعية ، متواضعة ، شانه فى ذلك شان الاغلبية الساحقة من المصريين (امثالنا) ، ولكنه كان ذكياً طموحاً ، وارتبط ذكاؤه وطموحه بمشروع الاستقلال الوطنى والتقدم الاجتماعى ، والنمو الاقتصادى ، والسمو الاخلاقى ، وبكل ما هو فاضل من القيم .

ولكنه ـ شان امثاله من ابناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ـ كلما تقدم فى دهاليز « السلطة » ، كلما حولها إلى « ثروة » ثم حول « الثروة » إلى « مكانة » ، ثم حول المكانة إلى « متعة » لنفسه وللاقربين ، وكلما تقدم فى دهاليز السلطة ، وتنامت الثروة ، وارتفعت المكانة ، واشتدت المتعة ، كلما ضعفت « الذاكرة » عن الاصل والفصل ، وكلما بدا « طريق الفضيلة » طويلاً ، مملا مثل « طريق الحرير » القديم ، بين الصين الادنى والمغرب الاقصى .

والاهم من ذلك انه بعد كل محطة فى دهاليز (السلطة والثروة والمكانة والمتعة) ، فإن امثال الرئيس السادات سرعان ما يغلقون الابواب من ورائهم ، حتى لايدخل غيرهم ، ولو كانوا يستحقون ، ولو كانوا غاضبين ، وهذا ماظهرت بداياته المبكرة فى يناير ١٩٧٧ ، اثناء « انتفاضة الخبز » فى رواية المحرومين الغاضبين ، او « انتفاضة الحرامية » فى رواية السادات والميسورين المستمتعين .

ولكن السادات والميسورين لم يقراوا علامات الإنذار المبكرة ، ولم يريدوا لاحد ان يفسد عليهم متعة السلطة والثروة والمكانة ، التى كان يحسدهم ويحقد عليهم بسببها اولئك الذين تعودوا واستمراوا « اشتراكية الفقر » على حد قول السادات نفسه .

وحينما بدا الرئيس السادات سياسة الانفتاح الاقتصادى ، ثم استقبل الرئيس الامريكى « نيكسون » بعدها باسابيع ، عام ١٩٧٤ ، رحب المصريون ، بما فى ذلك معظم فقراء مصر ، وعمالها وفلاحيها ومتعلميها بالحدثين ، لقد ظن الجميع ان السياسة الاقتصادية الجديدة ، والعلاقة الامريكية الجديدة من شانهما ان يحولا معظم المصريين إلى اغنياء ، او ميسورين ، او مستورين ، ولان معظم المصريين هم مثل الرئيس الراحل فإن « الجزء » المفتون بالغرب ، هو الذى انفعل إيجاباً ، بسياسة الانفتاح ، وتظاهر صخباً باستقبال « نيكسون » فى اوائل ١٩٧٤ .

ولكن لان « الفردوس الموعود » لم يتحقق فيما يتصل بالاغلبية العظمى من المصريين ، وإنما تحقق فقط للرئيس السادات ولقلة صغيرة جداً من الاقربين ، فإن « الجزء » الملعون بالغرب هو الذى انفعل سلباً ، وتظاهر غضباً فى اوائل عام ١٩٧٧ .

من سوء حظ الرئيس السادات انه امعن فى التفكير والحديث عن « المستقبل » فى امة تستسهل

التفكير والحديث والجدل حول الماضى . فنحن مازلنا نعيش حروب البسوس والسفبراء ، وعلى ومعاوية ، والحسين ويزيد . نحن مازلنا نطرب للاطلال ، سواء فى اشعار امرىء القيس او صوت ام كلثوم .

لقد باغتنا السادات بتفكيره وحدثه عن المستقبل ، ولم نكن مستعدين وقتها : وربما لسنا مستعدين الآن ، ولن نكون مستعدين ، مادام تعليمنا وثقافتنا وتربيتنا تمعن فى « تقديس الماضى » ، وتمعن فى التخوف من المستقبل ، وربما هذا هو السبب فى خوفنا الشديد مما يسمى « بالنظام العالمى الجديد » الذى بدا ، بعد مالطا (١٩٩٠) ، كما لو كان النظام السابق له ، الذى بدا بعد يالتا (١٩٤٥) افضل منه فيما يتصل بنا : او كما لو كان النظام الاسبق له ، الذى بدا بعد فرساى (١٩١٨ ـ ١٩١٩) افضل منه فيما يتعلق بنا .

حقيقة الامر هو انه منذ سقوط غرناطة (١٤٩٢) ، واكتشاف امريكا ونشاة مايسمى من وقتها باسم « النظام العالمى » ، ونحن دائماً كمصريين وعرب نندب كل ما مضى ، ونتخوف من كل ما هو « قادم » ، او على راى الإخوة المشارقة والمغاربة نحن « ماضويون » اكثر منا مستقبليون ، المستقبل بالنسبة لنا مجهول ، وكل مجهول هو « مؤامرة محتملة » .

وحقيقة الامر هو ان « المستقبل » كان مجهولاً لنا منذ سقوط غرناطة (١٤٩٢) ، لا لانه كان ينطوى على مؤامرة ، ولكن لاننا لم نسهم فى صياغته او الاستعداد له .

كان السادات ، شاذاً او استثنائياً بهذا المعنى ، فقد سبح « مستقبلنا » ضد التيار العاتى « للماضوية » المصرية ـ العربية ، لقد راى الطريق المسدود امام البيروقراطية الاقتصادية للدولة ، وراى انحسار القوة السوفيتية ، وصعود القوة الغربية ، راى ذلك قبل غيره واراد التعامل معه ، والاستفادة منه ، ربما لشخصه ، او لنظامه ، او لوطنه ، او لامته ، لا احد يعلم يقيناً ، المهم هو انه راى ما هو قادم مستقبلاً ، واراد ان يستعد له او يركب موجته .

ربما سيسطر التاريخ امجاداً عديدة للرئيس الراحل انور السادات ، بعد سنوات يتم فيها التقويم الموضوعى لسياسات وإنجازات الرجل ، ولكنه سيبقى فى حياة وخيال هذا الجيل من المصريين شخصية خلافية ، تثير

من المشاعر السلبية ، اكثر مما تثير من المشاعر الإيجابية ، واحد الاسباب الرئيسية لذلك هى نقمة معظم المثقفين عليه ، لقد احسوا انه قد خانهم ، لقد خان احلامهم ، التى كان قد شاركهم إياها فى شبابه المبكر ، وخان طبقتهم المتوسطة ، التى اتى هو منها ، ولكنه سرعان ماهجرها ، والتحق بالنسب او الانتساب إلى الطبقة العليا ، وخان زمنهم الاليف المألوف وهو « الماضى » ، واقلقهم بإقحام « المستقبل » عليهم ، وهجر نظريتهم عن « الآخر الغربى المتآمر » ، وهى نظرية استمروا فيها لمائتى عام ، ليواجههم بنظرية جديدة ، ولكنها « منحطة » ، تنظر إلى العالم والنظام الدولى بمنظار المصالح ، وجزاء كل هذه الخيانات ، تلقى السادات « لعنات » المثقفين و« رصاصات » المتطرفين ■

سعد الدين إبراهيم